

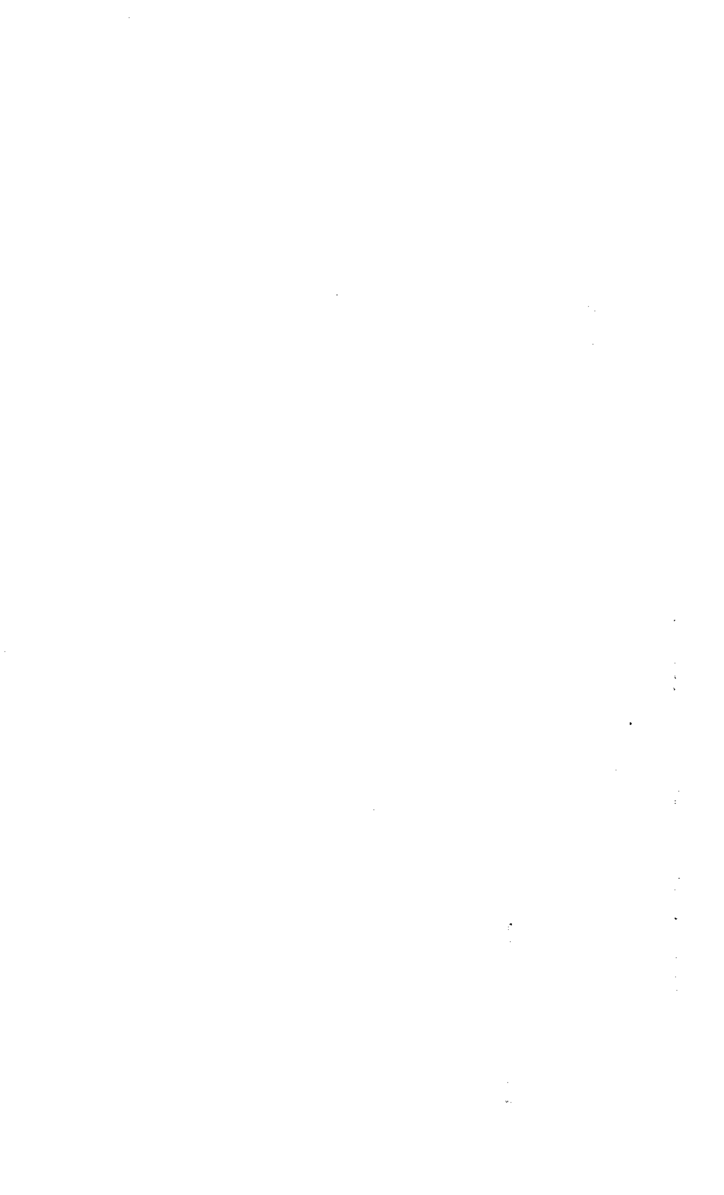
قَصِيدَةٌ مَدِيْحِيَّة
مَعَ شَرْحِهَا لِلنَّاظِمِ نَفْسِهِ

عبد العزيز الرفاعي

١٤١٤هـ - ١٩٩٣م

الطّبعَة الأولى
١٤١٤هـ - ١٩٩٣م

بسم الله الرحمن الرحيم



مقـدّمة

هذه القصيدة أعتز بها حقاً ..لا لأنها جاءت على ما أحب من المستوى الرفيع معنىً ومبنى .. فذلك ما لا أدّعيه بل هو ما أنفيه .. ورحم الله امرءاً عرف قدر نفسه ، وشاعراً (أو ناظماً) عرف قدر نظمه .

إنما أعتز بها لهذا الموضوع الذي دارت حوله ، وهو موضوع طالما تاقت إليه نفسي، وتطلعت إليه روحي ، واشتاق إليه وجداني ..

حقا لقد أخذت أعالج النظم ، ولا أقول الشعر ، منذ وقت مبكر من عمري .. ودرت معه في أكثر من فلك ، وذهبت نوازع الشباب وأحلامه بأكثر محاوره ، وكان للإخوانيات نصيب يذكر .

ولكن التطلع إلى امتداح الرسول العظيم عليه أفضل

الصلاة والتسليم ، ظل حلما من أحلامي الحبيبة ، اشتد إليه تشوّفي بعد أن مالت شمسي إلى الغروب ، وأدركتُ مدى تقصيري في هذا الجانب ، وبخاصة أنا الذي تعلقت أشواقي بسيد المرسلين ، منذ شبابي الباكر ، حتى لكان أول تطلعي إلى التأليف ، توقاً شديداً إلى أن أضع كتيباً في السيرة الشريفة ، لطلَبَتي في الابتدائية حينما عملت في مطلع حياتي العملية مدرساً في المدرسة العزيزية الابتدائية بمكة المكرمة .. وهو كتيب لم يُقَدّر له أن يتم ، لمغادرتي دنيا التدريس إلى عالم الوظائف الإدارية .. فطويت الفكرة بعد أن تغيّر المناخ !

ومنذ سنوات قليلة خلتْ .. أخذت فكرة محاولة نظم قصيدة مديح نبوية تلح عليّ إلحاحاً كبيراً .. وما كان يحول بيني وبين الإقدام على تحقيق هذا الحلم العزيز .. إلا ما أحسهّ فى نفسي من قلة بضاعتي في عالم النظم .. بل

ضعْف قدرتي على اقتحام هذا الجانب بالذات ، الذي دار حوله شعراء عظماء ، بلغوا فيه أمداء بعيدة من الجودة والإبداع والتحليق !

حقا لقد نظمت على مدى العمر ، أو على مساحة منه بلغت خمسين سنة ، نظماً ربما بلغ مقدار مقطوعاته خمسين أيضاً .. ولكني كنت أنظر دائماً لهذا النظم نظرة استخفاف ، ربما كان مصدر ذلك أنني دائماً أحاول في تقويمه أن أنظر إلى أولئك العظماء من الشعراء المبدعين الذين أتذوق إبداعاتهم تذوقاً خاصاً .. تماماً كمن يحسن تذوق الطعام اللذيذ المتقن ، ليعلم أين مكامن إتقانه .. ولكنه لا يستطيع أن يصنع مثله ، ولا ما يقترب من مثله ، أي من يمكن أن نسميه (الذواقة) .

وإذا كان هذا شأني مع نظمي بصفة عامة .. فماذا تكون نظرتي إلى محاولة اقتحام ميدان المديح النبوي .. وهو

فن جوّد فيه المجوِّدون وحلّقوا وأبدعوا .. وبهروا ؟

وبالرغم من هذه الخواطر المثبطة .. كان الإلحاح أعظم وأكبر ، يملأ أقطار نفسي ، حتى ليصبح شغلها الشاغل .

ويبلغ الإلحاح مداه في صيف عام ١٤١٢هـ ، ويبلغ أوج المدى في اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول .. ذكرى مولده عليه أفضل الصلوات. .

ولما كان العهد بالشعراء الكبار فيما عرفه جيلي ، والأجيال التي سبقته على مدى أربعة عشر قرناً ، هو التماس المطلع الجميل الذي يهز الوجدان ، أو يشد انتباه السامع أو القارىء ، ليحمله على متابعة الشاعر في أبيات قصيدته ، وليجتذب الإصغاء والإنصات .. فقد أخذت أسأل نفسي : ترى ما المطلع الذي أدخل به إلى قصيدتي ؟ وخيل إليّ أن الشعراء المبدعين الذين سبقوني بروائع مدائحهم ، لم يتركوا لي شيئا ألتمسه .. وأنهم ذهبوا بالمطالع المبدعة جميعها ..

ثم قلت لنفسي لماذا لا يكون مطلعي هو التعبير عن هذه الفكرة .. أي (البحث عن مطلع) ..؟ وهكذا كان مطلعي:

المبدعون ، وكيف لي أن أبدعـــا ؟

قطفوا الروائع لم أجد لي مطلعا

ثم مضيت ألتمس البيت تلو البيت .. أو الزمرة من الأبيات تلو الزمرة منها ..

وكنت أملك فراغاً من الوقت .. وإن كانت شواغل الحياة تملأ القلب والنفس ..فلا تترك فيهما فراغاً.

وكنت اصطاف في مدينة " فينخوريلا " بالأندلس .. وهي مدينة (سهيل) التي كان يسكنها الإمام السهيلي .. والسهيلي هو شارح سيرة الرسول العظيم عليه أفضل الصلوات ، في كتابه الشهير (الروض الأنف) ، ولم يكن هذا الشرح المستفيض الذي اضطلع به السهيلي يرحمه الله ، لسيرة ابن هشام ليكون لو لم يكن محباً للسيرة النبوية

العطرة .. وكان السهيلي إلى ذلك شاعراً مجوداً ، لم يبق من شعره إلا القليل .

في هذه المدينة الأندلسية الجميلة ، على شاطىء البحر الأبيض المتوسط .. أخذت أهمس بأبياتي .. معبراً بطريقة عفوية جداً ، عن الخواطر التي كانت تنتابني .. حتى استقام لي من أبياتها اثنان وأربعون بيتاً ، هو مجموع أبياتها .

وعجبت عندما تلقفها بعض أصدقائي .. وأحسنوا بها الظن .. ولم يضن علي بعضهم ، بما عنّ من ملاحظاتهم ، فأخضعت القصيدة لبعض التغييرات الطفيفة ، حتى انتهت إلى ما هي عليه الآن ، حسبما يراها القارىء ماثلة أمامه ..وإني لأعلم أنها رغم حرارة الإخلاص والصدق فيها فإنها بالمقارنة مع روائع شعر المديح ، لا تبلغ شيئاً يؤهلها لشرف المقارنة ، ولكن بحسبها أن تحوز

شرف الانتماء إلى أولئك الذين دلفوا إلى هذا الميدان .. وهم فيه طبقات ، منهم المحلّق ، ومنهم من أتى في المؤخرة . ومنهم بين بين .. فليكن لي بينهم مكان مهما كانت درجته ..

هذه قصة القصيدة ..

أما قصة نشرها .. فقد كنت في البدء .. عزوفاً عن نشرها .. كما كنت وما زلت عزوفا عن نشر شيء من هذا النظم الذي قد يعنّ لي بين الحين والحين .. إلا أن تدفعني إلى ذلك أسباب لا أملك لها دفعاً .

أما وقد رأى بعض أصدقائي أن تنشر .. ولم أملك لرغبته صداً .. فقد رأيت أن أشرح منها بعض ما قد يكون غامضاً من ألفاظها أو إشاراتها .. لئلا تخضع لتأويل لم أقصده ، ولا خطر لي ببال .. ولعلي بهذا الشرح أن أقدم بعض الفائدة .. لمن يتطلع إلى شيء من

ذلك . ولعلي أستطيع أن أجعل من القصيدة وشرحها شيئاً يصلح أن يكون في حجم كتيب صغير .

ومن الله أستمد التوفيق والعون والسداد .

الرياض غرة جمادي الآخرة ١٤١٢هـ

عبدالعزيز الرفاعي

السلام عليك ..

١-المبدعون - وكيف لي أن أبدعا -
قطفوا الروائعَ ، لم أجد لي مطلعا

٢-ضفروا لسُدَّتك النجوم وزاحموا
فيها ، فما تركوا هنالك موضعا

٣-ذهبوا بمدحك حيثما ذهب الهوى
فحسبتهم أهدوا إليك روائعا

٤-ولقد ظننتُ بأنهم بلغوا الذرى
فإذا بمجدك لا يزال ممنّعا ..

٥-وإذا همُ في السفح منك جميعُهم
وأنا المهيض أتى لصرحك ظالعاً

٦-أنتَ الثـريا ، بل مـجـرات المدى
قـد فـقـتـهنّ جـمـيـعـهـنّ مطالعـ

٧-جاءوك في الزمن البطيء فـأسرعـوا
وبرغم عـصري مـا أتيـتك مـسـرعـ

٨-الحب يشـفع إن حبـوتُ مـقـصـرا
ورجـوت فـي الدارين لي أن يـشـفـعـ

٩-عِيِّي ـ وإن عظُمَتْ به البلوى ـ وعى
من فيض حبك ـ ملهماً ـ ما قد وعى

١٠-ولقد مَدَحْتُكَ صادقاً لا سابقاً
والعـاشـقـون لـكل قـلب مـا ادّعى

١١-ولقد زعـمتُ بأنني لك عـاشق
والعشق يستـهدي القلوب مـسامعـ

١٢-فـإذا تدفَّق خـاطري فـبـفـضله
وإذا تحـــجّر ، لـن أكفّ تـطلّعـــا
١٣-والقلب شفّاف إذا صدق الهوى
يـجـــتـــاز بالنور المشعِّ الأضلعـــا
١٤-يا خيـر خلق الله ما لي حيلة
إن لم أصُغْ مـــعنىً فـــريداً بـارعـــا
١٥-أعطيتُ من جَدْبي وخـصـبك يانع
أنّى يجـاري الجـدبُ خِصـبـاً يانعـا

* * *

١٦-مـاذا يـقـول المادحـون وإن يكن
بلغـوا الذرى ، فـلأنت أسمى مـهـيـعا

١٧-أثنى العظيم عليك في آياته
بعظيم خُلُقِك مـــا أجلّ وأروعـــا !

١٨-الناس إن مُدحوا استطاروا فرحةً
والمادح المصنوع ليس الصـــانعـــا

١٩-ومـديح ربك وهو أنفس مـدحـة
قـــد زاد فـــيك تعـــبّداً وتواضـــعـــا

٢٠-الشكر فـــيك منارة قـــدسيـــة
تهـدي من اتبع السـراج الســاطعـــا

* * *

٢١-هل نالت الرسل الهداة جميعها
قـمما ، لغيرك قد أبت أن تخضعا ؟

٢٢-من كل صـــاحب آية ، لك آيةٌ
حـــبّات تاجك يأتلقن لوامـــعـــا
٢٣-والكوكب الدُّري ســـرّ سنائه
من كـوكـبين عـلى جـبـينك شعـشعـا
٢٤-نهــران من نور : فنهــر رســالة
كـــمُلتْ ، فلم تتــرك لشكٍّ منزعــا
٢٥-أشرعتـهـا للظامئين على الدنى
فـــسـقـيـتــهم رياً زلالاً مُشــبــعــا
٢٦-والحوض في الأخرى شريعة شافع
في الـهـول للعطشى ، حناناً مُتــرعـا

* * *

٢٧–جزت الطباق السبعَ بل ما فوقها
من حـيث قـد وقف الأمين مـروّعـا !

٢٨–ولقد صـعدت من المعالي سبعةً
من قـبلهـا ، واجتـزت حتى السـابعا

* * *

٢٩–بَنَتِ الملائكُ في ذراها كـعـبـةً
ظلّوا لديهـــا الطائفين الرُكـــعـــا

٣٠–وبنى أبوك كـمـثلهـا مـعـمـورةً
في ظلّهـــا ، صلةً ورمـــزاً رائعـــا

٣١–والرمـــز توحـيــد الإله بقــبلةٍ
جــاء الخليل ، يعـدها لك رافـعـــا

٣٢-الكعـبـتـان وشـيـجـة أبدية
تدني من الأرض السـمـاءَ مـرابعـا
٣٣-وحَجَجْتَ للقدس الشريف تؤمّـه
بل أنت كنتَ به الإمـام الجـامـعـا
٣٤-هذي القداسات الثلاث جمعتها
وامـتـزت حين أضـفـتَ قـدسـاً رابعـا
٣٥-المسجـد النبـويٌّ مـذ بـاركتـه
حـرمـاً ، له الإيمان يأرز طائعـا
٣٦-حَرَمَانِ : في مـهـد ولحـد جُمِّعا
ولَغـيـرأرضك قط لم يتـجـمَّعـا
٣٧-كـان الخـتـام بدايةً مـرسـومـة
جـبـريلُ أداها ، وعـاد مـودعـا

٣٨-ما بعده تهدي السماءُ رسالةً
ما كان أسعده بها فيما سعى

٣٩-بكتاب ربك قد تتابع سعيه
فغدا مفرَّقُه لديك مجمعا

* * *

٤٠-لك في كياني ذرة أدنو بها
إن لم أجد طبعا رجوت تطبُّعا :

٤١-أبتي ـ إذا ابتلّتْ بها شفتي ارتوت
وشعرت أني لن أكون مُضيّعا ـ

٤٢-رد السلامَ .. فإن وهبتَ زيادةً
فلأنت أهل أن تزيد وتُشفعا

نظمت هذه القصيدة بدءاً من يوم ١٢ ربيع الأول المبارك ١٤١٢هـ ، وختمت في ٢٩ منه .

الشَــرْح

١ - الذين مدحوا الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - كُثْرٌ ، أكثر من أن يتم لهم إحصاء ، والذين أبدعوا منهم في مدائحهم ليسوا قليلا .. وقد أُلفت كتب ومجاميع في المدائح النبوية في القديم والحديث ، وأُلفت كتب أخرى في تقويم المدائح النبوية ونقدها ، وكلها مما لا يخفى أمره على القارىء المتابع ، من ذلك ما وضعه الشريف الرضي في القديم ، وزكي مبارك في الحديث ، ولعل (المجموعة النبهانية) من أشمل ما ضم كتاب عن المدائح .. ومن قصائد المديح النبوي ما سارت به الركبان ، وذاع أمره وشاع في بقاع الأرض ، وأول ما يذكره الذاكرون من ذلك ، قصيدة كعب بن زهير - رضي الله عنه - المشهورة :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول

متيّم إثرها لم يُفد ، مكبولُ . .

وقد حظيت هذه القصيدة بعدد كبير من المتابعات المقابلة لها وزناً وقافيةً .. وبشروح كثيرة ، وهذه القصيدة هي التي خلع الرسول - صلى الله عليه وسلم - على شاعرها بردته الشريفة .. فكانت هي البردة الأولى .

ومن المبدعين المشهورين البوصيري في قصيدته :

أمن تذكر جيران بذي سلم

مزجتَ دمعا جرى من مقلةٍ بدم ..؟

وقد نالت هي الأخرى شهرة مستفيضة في الآفاق ، وكانت هي البردة الثانية ، وقوبلت بمتابعات من أشهرها قصيدة أحمد شوقي التي مطلعها :

ريم على القـاع بين البان والعـلَمِ

أحل سفك دمي في الأشهر الحـرم

وقد اشتـهر البـوصيري بمدائح نبوية متعددة ، وكذلك شوقي .

ومن الشعـراء من خص الرسـول - صلى الله عليـه وسلم - بدواوين مفـردة في مـديحـه ، وتفنن بعضـهـم في نظمـه ، والتـزمـوا التـزامات شتى .. مما ساق بعضـهم إلى التكلف .

وممن اشتـهـر بشعـر المديح.. البـوصيري (مـحـمـد بن سعيـد ، ت ٦٩٦هـ) والبـرعي (عبـدالرحيم بن أحـمـد ، ت ٨٠٣هـ) ، والصرصري(يحيى بن يوسف ت ٦٥٦هـ) ، وابن نباته المصري (محمد بن محمد ، ت ٧٦٨هـ) وآخرون كثر ، بين قدامى ومحدثين (تنظر المجموعة النبهانيـة ١/ ١٥ طبع دار الفكر) .

وقد ذهب أولئك المبدعون بمطالع جذابة أخاذة ، حتى لتخيلت أنني لن أجد بعدهم مطلعاً استهل به مدحتي . وحتى لترددت في الخوض معهم فأنّى لي أن أبدع إبداعهم !

٢ - ضفروا من : ضفَر يضفِر ؛ بكسر الفاء في المضارع ، أي : جعلوا من النجوم ضفيرة ، يلتف بعضها على بعض كما تضفر قلائد الورود ، يأخذ بعضها بأعناق بعض .

والسُّدة : بضم السين ، الباب ، أو العتبة .

والمعنى أن الشعراء المبدعين في مدائحهم للرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - كانوا يضفرون معانيهم نجوماً يقدمونها لسدته العالية ، قد ازدحموا بباب مديحه حتى ما تركوا مكاناً لصاحب هذه المدحة .

٣ - وقد تابع هؤلاء المبدعون ، خطوات حبهم الشديد لك أيها الرسول الكريم ، صلى الله عليك وسلم ، لكي يعبِّروا ما وسعهم التعبير عن عشقهم ، حتى لحسبتهم

من أثر الانبهار بهذا الحب ، ومعانيهم الشائعة فيه ، أنهم أهدوا اليك فعلاً روائع منقطعة النظير من مدائحهم .. ولكن .. ؟

٤ - ولكن .. مع إعجابي الشديد بما وُفقوا إليه من روائع المعنى والمبنى والسبك ، وحرارة الصدق ، حتى لظننت أنهم بلغوا الشأو البعيد ، والذُّرى - جمع ذِرْوة - أعني قمم الإبداع .. لكن مع كل ذلك ، ظل مجدك العظيم فوق مدائحهم ، فما استطاعوا على إبداعاتهم ، أن يصفوا ما بلغتَ من مكانة عليا ، رفعك الله جل شأنه إلى ذراها .

٥ - لذلك ظلوا هم كلهم في السفح من طودك أو من صرحك الشامخ .. ليس منهم من اقترب من عليائك .. ولكني لا أزعم أنني المرشح لمثل هذه المكانة ، بل على النقيض تماماً .. فأنّى لي أن أصل إلى درجة أقلهم شأناً ، فقد أتيت إلى صرحك ، وقصدت مدحك ، وأنا مهيض

كالطائر الذي كسر جناحه ، فلا يقوى على الطيران بله التحليق ، والظلع : ضعف في السير أو عرج .

٦ - الثريا : مجموعة من الكواكب ، تبدو متألقة ، جميلة التنسيق . يقول الفلكيون : إنها على بعد أربعمئة سنة ضوئية ، تبلغ عدة مئات ولكن لا يرى منها بالعين المجردة إلا سبع ، (المورد) .

أما المجرات ، أو المجرة ؛ فعبارة عن حزام عريض من مليارات النجوم ، يرى ليلا من الأرض على شكل دائرة نورانية ، خاصة في شهور الصيف في نصف الكرة الشمالي (المورد) .

والمقصود بالمدى هو الأبعاد السماوية .

والمراد : أنك بما شرفك الله من رسالة هادية ، قد فقت الكواكب تألقاً . وقد عبر القرآن الكريم عن مثل ذلك في قوله تعالى عن السماء : ﴿وجعل فيها سراجاً

وقمراً منيراً ﴾ ٦١ الفرقان ، ولفظ السراج ورد أيضا بهذا المعنى فى ١٦ نوح ، و ١٣ النبأ . وقال تعالى فى حق رسوله : ﴿ وداعيا إلى الله بإذنه و سراجاً منيراً ﴾ ٤٦ الأحزاب ، فجمع له بين السراج الذى يضيء في ذاته ، وبين الإنارة للغير وهداية النجوم حسيّة ، وهداية الرسول – صلى الله عليه وسلم – هداية معنوية ، وهي ولا شك أعظم . وهذا معنى قد فقتهن جمعيهن مطالعاً .

٧– في هذا البيت محاولة اعتذار عن التقصير في عدم المبادرة في زمن الشباب ، للنظم في امتداحه – صلى الله عليه و سلم – فقد جاء وفد الشعراء القدامى ، الذين ازدحموا عند سدته ، متسارعين إلى مديحه ، بالرغم من أن زمنهم كان زمناً بطيئاً ، أي لم يعرف وسائل النقل السريعة ، فقد كانت وسائل نقلهم الدواب ، بينما هذا العصر – عصر الناظم هو عصر السيارة والطيارة والصواريخ ، وكان واجبه

أن يتأثر بهذه الروح ، فيبادر بالتعبير عن حبه العظيم للرسول الكريم ، عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم .

٨- أما وقد خالف منطق عصره العجل ، وحبا بطيئاً معترفاً بتقصيره ، فإنه يأمل أن يشفع له حبه للرسول الكريم - صلى الله عليه و سلم - وأن يكون هذا الحب شافعاً له في الدارين ، أما في الدنيا ، بالاقتداء بسنته صلي الله عليه وسلم ، والسير علي نهجه ، واقتفاء أثره وشريعته الغراء ، وأن يؤهله ذلك لاستحقاق شفاعته صلى الله عليه وسلم ، في يوم المعاد ..

قال عليه الصلاة والسلام : (.. فوالذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده وولده والناس آجمعين)صحيح البخاري : باب: حب الرسول صلى الله عليه وسلم من الإيمان . وفيه في باب حلاوة الإيمان : (ثلاثة من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب

ليه مما سواهما ..) إلخ ، والإيمان في الدنيا يؤهل لشفاعته صلى الله عليه وسلم يوم القيامة .. اللهم اجعله لنا شفيعاً مشفّعا . وجاء في الحديث الذي رواه البيهقي وصححه الحاكم عن أبي هريرة - رضي الله تعالى عنه - قال : قلت : يا رسول الله ، ماذا ورد عليك في الشفاعة ؟ فقال : (شفاعتي لمن شهد أن لا إله إلا الله ، مخلصا يصدِّقُ لسانهُ قلبه) وهذا موطن الرجاء في الدارين .

حبوتُ : في (لسان العرب) : « حبا حبُواً : مشى على يديه وبطنه ، وحبَا الصبي حَبْواً ..قال الجوهري : هو إذا زحف .. »إلخ .

٩ - أما سبب ذلك البطء والتقصير ، فهو عيِّي: عجزي عن التعبير تعبيراً يليق بمكانة الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - خاصة بعد أن قال المبدعون فأكثروا وأبدعوا وسابقوا ، وقد عظمت بلواي بهذا العيِّ .. وكفى به

بلوى أن يعجزني عن أداء هذا الواجب أو ما أعدّه واجبا ،
ولكن ، وهذا سياق الاعتذار ، فإن هذا العي وعى من فيض
حبك الشيء الكثير ، فكانت معاني الإلهام الشعري تجول
في النفس ولا تنطلق ·

١٠ - أما وقد اعتذرت بالحب مع العيّ ، فقد أملى علي
هذا الحب ، أن أحاول مدحك صادقا ، إن لم يتيسر لي أن
أكون سابقا في العصر ، أو سابقا في المبادرة ، والسبق الأول
ليس في يدي أمره ، والسبق الثاني هو ما أعتذر عنه
مؤكدا حبي ، ولكل محب أن يدعي ما يدعيه ، والله وحده
هو الذي يعلم السرائر وما تخفي الصدور·

١١ - ومع أن الحب ، مما تنطوي عليه القلوب ، فيخفى
أمره ، إلا لمن أعرب عنه ، أو ظهرت عليه أماراته .. فقد
حاولت بهذا النظم أن أعبر عن هذا الحب ، أما مدى
الصدق فيه ، فلعله بحرارة صدقه يستهدي القلوب الإصغاء

أو يجتذب المسامع إلى أن تتلمس همس الأفئدة . وإنما جعل اللسان على القلوب دليلاً .. سائلاً الله تبارك اسمه أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه .. وأن يكتب لنا القبول والرضوان .

والزعم : مثلثة الزاي أي بالضم والفتح والكسر . والمقصود هنا : ادعيت . واقترن تفسيرها بكلمة صادقاً في البيت السابق .. أي : ادعيت حقاً .

١٢ - ولا يزال السياق متصلا بالاعتذار .. وهذا البيت يقول : إذا تدفق خاطري ، فأحسنتُ التعبير عما يجول في النفس ، فذلك من أثر الحب الصادق ، أما إذا تحجر الخاطر وتجمد ، أو لم يستطع أن يعبر تعبيراً جيداً عما تكنه أحاسيس الوجدان ، فهذا لن يحول دون التطلع إلى محاولة أخرى .. وأحر بمن يطرق الباب أن يلج .

تدفق : انصبّ بشدة . تحجّر : انحبس . يكف : يمتنع .

والتطلع هنـا بمعنى الانتظار والمراقبـة وتجديد المحـاولة ·
١٣ - أما مـعيـار صـدق الحب ، وصـدق الإعـتـذار ، فـإن القلب الـذي يصدق في الحـب يشف عما وراءه ، فلا تخفى آثار حبـه ، بل هـو يرسل أشعـتـه ، فـتخـترق الأضلع لـتدل على مكنونـه · وقد دار حول هذا المعنى كثير من التعابير النثـرية والشعـرية .. التي تدل على أن القلوب تملك قـدرة فائقة في التعبير عن ذخائرها · وفي الكلام الدارج نقول : القلوب عند بعضها · ومن القلب للقلب دليل·

وشف الشيء يشِف : بكسـر الشين ؛ بمعنى كـان من الرقة بحيث يظهر ما بداخله · كما هو في الزجاج ·
١٤ - وخـلاصـة الاعـتـذار ، عن العيّ ، وعن اللحـاق بالمبدعين ، هو الإخبار بأن لا حيلة لي في التحليق الشعري لصيـاغة المعاني البارعة الفريدة ، فهذا اعتراف بالعجز ورحم الله امرءاً عرف قدر نفسه ·

وبرع : يبْرَع . بفتح الراء في المضارع ، وضمها وكسرها . أي مثلثة . والمعنى تفوّق ، والبارع أيضاً الجميل .

١٥ - أما وأني لم أستطع أن أصل إلى حد البراعة والإبداع والتفوق ، فليكن إذن الرضا بالواقع ، هو هذا المديح المتواضع ، بما استطعته من جهد ، فإنما أعطيت من جدبي وفقري ، بينما مكانك رفيع ، بل أنت خصب كالربيع ، وخصبك يانع مثمر ، فكيف يستطيع الجدب أن يلحق بمكان الخصب .. وأن يدرك تصويره .. ذلك مالا يكون .

والأرض المجدبة التي لا زرع فيها ، ولا تنبت ، أما الخصب فهو العكس .

١٦ - في بداية هذه الفقرة عودة لتأكيد أن المبدعين من الشعراء مهما أبدعوا وأكثروا ، ومهما بلغوا المدى والذرى ، فإنك فوق أماديحهم ، وفوق المعاني والألفاظ

والتعابير التي يأتون بها .. أما لماذا ؟ فهذا ما سيأتي
تعليله في الأبيات التالية .. وما هذا البيت إلا مدخل
للمعاني التي تدور عليها هذه الفقرة .

و (المهيع) : هو الطريق البين الواسع ، والمقصود
أسمى مكانة ، وأرفع موضعاً . وفي (لسان العرب) :

إن الصنيعة لا تكون صنيعة

حتى يصاب بها طريق مهيَع

تراجع مادة هيع ، وفي مادة ترع أورد قول العجاج
الراجز :

وافترش الأرض بسيل أترعا

يملأ أجواف البلاد المهيعا

١٧ - أما لماذا لم يستطع مادحوك أن يبلغوا شأوك
فهذا أوان الإجابة على هذا التساؤل . ذلك أنك حظيت بمدح
الله العظيم تبارك تعالى في قرآنه الكريم ، حينما أثنى

عليك بعظيم خُلقك .. في قوله عز وجل : ﴿ وإنك لعلى خُلُق عظيم ﴾ ٤ القلم . وفي هذه الآية ثناء جليل عليه صلى الله عليه وسلم في عبارة موجزة ، جمعت له خصال الخير كلها . فكفى أن يكون عظيماً في خلقه كله . وقد تفرد عليه الصلاة والسلام بهذا الوصف القرآني ، الذي لم يوصف به أي رسول آخر ، على كثرة ما أثنى عز وجل على رسله في قرآنه الكريم ، كما انفرد بقسم الله تعالى بحياته صلى الله عليه وسلم ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون ﴾ ٧٢ الحجر. قال القاضي أبو بكر ابن العربي : قال المفسرون بأجمعهم : أقسم الله تعالى هاهنا بحياة محمد صلى الله عليه وسلم تشريفاً له ، أن قومه من قريش في سكرتهم يعمهون وفي حيرتهم يترددون . وهكذا قال القاضي عياض : أجمع أهل التفسير في هذا أنه

قسم من الله جل جلاله بمدة حياة محمد صلى الله عليه وسلم .. وهذا نهاية التعظيم وغاية البر والتشريف . قال أبو الجوزاء : ما أقسم الله بحياة أحد غير محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنه أكرم البرية عنده . تفسير القرطبي : ١٠/٣٩. وتنظر مقدمة (روضة المحبين) لابن القيم .
والآيات في الثناء عليه كثيرة ، ومفصلة في كتب السيرة والشمائل .

ما أجل .. ما أعظم ، وأروع هنا بمعني الإعجاب والإكبار ، تقول : رائع ، وراعني الشيء بمعنى أعجبني ، والرائع من الجمال : الذي يعجبك حسنه ، يعجب رُوع من رآه فيسره . ينظر لسان العرب . وفيه : « في حديث صفة الجنة ، فيروعه ما عليه من اللباس ، أي يعجبه حسنه ، ومنه حديث عطاء : يكره للمحرم كل زينة رائعة أي حسنة » اهـ.

١٨ - وإن هناك لفرقاً عظيماً بين الثناء من الله جل

جلاله ، وبين المديح يحاول أن يصوغه الناس شعراً أو نثراً .. ذلك أن الله تبارك وتعالى هو الحق ، وهويقول الحق ويهدي السبيل . ولكن من دأب الناس الفرح بالمديح يأتي على ألسنة المادحين ، بل هم إذا مُدِحوا من الشعراء المجوّدين استطاروا من الفرح ، وبلغت بهم النشوة بالإطراء مبلغها ، فكيف إذا جاء المديح من الحق ، فصدر عن خالق الخلق وصانعهم ، ولم يصدر عن البشر المخلوقين ، الذين من صفتهم العجز مهما بلغت بلاغتهم ؟ ان مدح الله هو :

١٩ - هو أعظم المديح وأجلُّه وأصدقه وأصفاه ، وأشفاه ، هو أنفس المديح .. الذي لا يرقى إليه شيء .. ولا تدانيه معانٍ ولا ألفاظ.

ولكن هذا المديح الصادر من رب العزة والجلالة ، الذي أضفاه على رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم ، لم يدْعُهُ إلى التواكل في العبادة ، أو الكسل عن العمل في مرضاته ،

ولم يدخل إلى نفسه شيئاً من الكبر أو الغرور ، بل دعاه إلى الاجتهاد في العبادة والتهجد والتوجه إلى الله عز وجل بالحمد وزاد من تواضعه ، ليكون عبداً شكوراً . كما جاء في الحديث الشريف : « أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه ، فقالت عائشة : لِمَ تصنع هذا يارسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً » .

وفي رواية أخرى عن المغيرة بن شعبة أنه قال : (... أفلا أكون عبداً شكوراً) . صحيح البخاري ، كتاب: التفسير ، سورة الفتح .

٢٠ - وبذلك الشكر منه - صلى الله عليه وسلم - وبذلك التواضع ، أعطى القدوة الحسنة للمسلمين : ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ﴾ ٢١ الأحزاب ، وهذا الخلق في تواضعه وشكره ، كان المنارة القدسية التي أرادها

الله عز شأنه ، لتهدي العباد إلى طريق الرشد والهداية والصراط المستقيم ، منارة تشع بالسراج الوهاج الذي ينير السبيل إلى يوم الدين ، بما أعطى من قواعد التشريع في كتاب الله المنزّل ، وفي حكمته وتشريعه وإرشاده .

قال تعالى : ﴿ وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيرا ﴾ ٤٦ الأحزاب . وقال : ﴿ ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴾ ٣٢ التوبة . اللهم اجعلنا من أتباع ذلك السراج المنير ، هداة مهتدين يارب العالمين .

٢١ - في هذا البيت والأبيات التالية له ، ما عدا الأبيات الثلاثة الختامية ، محاولة لبيان بعض نقاط الامتياز التي وهبها الله - جل وعلا - لرسوله الكريم محمد عليه الصلاة والسلام ، فقد أعطاه من المميزات قمماً عالية ، لم تخضع لغيره من الرسل الهداة ، أي لم يصل إليها أحد منهم ، فقد

أعطاه الله القرآن العظيم الذي أحكمه ، فلم ينله تغيير ولا تبديل ، ولن يناله شيء من ذلك إلى يوم الدين ، وجعله خاتم رسله ، ووعده بأن يجعل دين الإسلام ظاهراً على الدين كله ، واختصه بالإسراء والمعراج ، وفي الأبيات التالية إعطاء نماذج من هذه المميزات لا محاولة حصر.

٢٢ - من ذلك أنه وهبه من معجزات الرسل لآلىء يلتمعن ، ينتظمهن تاج مجده ، وميّزه بميزات عظيمة هي أبلغ وأسمى .. وقد أشار إلى ذلك القاضي عياض في(الشفاء ٧٥٦/١ طبعة دار الكتب العلمية في بيروت) حيث قال : « ومعجزات نبيِّنا صلى الله تعالى عليه وسلم أظهر من سائرمعجزات الرسل بوجهين : أحدهما كثرتها ، وأنه لم يؤت نبي معجزة إلا وعند نبينا مثلها أو ما هو أبلغ منها .. » إلخ ، وقد فصّل ذلك في كتابه ، كما فعل الكثير غيره ممن عني بالحديث عن مناقبه ومعجزاته صلى الله عليه وسلم .

٢٢ - أما وأن هذه المعجزات لآلىء لامعة في تاج
ـسجده النبوي ، فإن لكل تاج لؤلؤته العظمى ، أما
لألماسة الكبرى ، أو الكوكب الدري الوهاج .. فإن
تاجه المعنوي كوكباً درياً ساطعاً ، سر سنائه وضيائه
رتوهجه نابع من كوكبين شعشعا ، أو سطعا من جبينه
لشريف صلى الله عليه وسلم .. وهما :

٢٤ - نهران من النور الدافق ، أولهما نور أو نهر رسالته
صلى الله عليه وسلم ، وهي رسالة تتفرد بأنها الرسالة
لكاملة التي لا تحتاج إلى إتمام ، ولذلك كانت خاتمة
لرسالات السماوية ، فليس لشاكٍ بعدها أن يشك في عناية
لله تعالى بخلقه ، وإرشادهم إلى الصراط المستقيم ،
فأصبحت الحجة قائمة على العباد ، ومعنى (منزع) أي
محل للنزاع والمجادلة ..

٢٥ - والرسالة .. أشرعها رسول الله صلى الله عليه وسلم

للظامئين ، المتعطشين إلى الهداية والدين الحق ، ويسر
شريعته للعباد بلا واسطة ، فالدين الإسلامي دين التوحيد
الخالص ، هو الصراط المستقيم الذي ليس به ماتردّى فيه
المغضوب عليهم ، أو تخبط فيه الضالون . قال تعالى :
﴿ ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهوا
الذين لا يعلمون ﴾ ١٨ الجاثية ، بل جاءتْ هذه الشريعة
الصافية من الأكدار ريًا ، يروي عطش قلوبهم وعقولهم
وهو ري زلال .. لا يروي الظمأ فقط وإنما هو شبع أيضا
فيه الكفاية للروح والعقل ..

وأشرعتها : بمعنى أتحتها : وفي القاموس : شرع
لهم ، كمنعَ ، سنّ ، والمنزلُ : صار على طريق نافذ .
والدُّنى : جمع دنيا ؛ أي أن هذه الشريعة للحياة الدنيا ، لأن
الحديث سيأتي عن شريعة الآخرة ، أو النهر الآخر ، أو
الكوكب الثاني . و الري : بكسر الراء من روي يروى : بمعنى

سد حاجته من الشرب . الزلال : بضم الزاي : البارد العذب الصافي . واستعمال الشبع هنا للماء وارد في الحديث : قال صلى الله عليه وسلم : (ماء زمزم لما شرب له ، إن شربتَه تستشفي به شفاك الله ، و إن شربته لشبعك أشبعك الله به ، و إن شربتَه ليقطع ظمأك قطعه الله) . سنن الدار قطني ٢٨٩/٢ آخر كتاب الحج ، وفي الحديث أيضا: « إن زمزم كان يقال لها في الجاهلية شباعة لأن ماءها يروى العطشان ، و يشبع الغرثان » ، ينظر (لسان العرب) مادة شبع ، وفيه : الشبع من الطعام وغيره .

٢٦ - وفي هذا البيت ، ذكر للنهر الآخر ، أو الكوكب الثاني ، وهو الحوض المورود الذي خُص به نبينا صلى الله عليه وسلم في الأخرى ، فهو شريعة ثانية ، تقابل الشريعة الأولى ، و الأولى شريعة معنوية ، تروي الظماء للحقيقة ، أما شريعته الأخرى ، و هي حوضه ، فهو مخصص ليوم

الهـول العظيم ، يـوم لا شفيع إلا سيد الرسل عليه
الصلاة والسلام ، حيث يقوم فيسقي أمته ذلك الحنان
المترع ..(المترع المملوء) .
٢٧ - أما وقد تمت المقابلة بين حوضي الدنيا ،
والآخرة ، فإن البيتين التاليين يتحدثان عن مقابلة أخرى ،
في سياق الحديث عما ميزه الله جل و علا به ، من صفات
ومعجزات ، بينها ما هو حسي ، و بينها ما هو معنوي ، أما
الحسي ، الذي يتحدث عنه البيت الأول ، فهو الإسراء
و المعراج ، حيث أتاح الله له سبحانه وتعالى ، أن يجتاز
السموات السبع ، بل أن يصل إلى ما فوقها ، حيث سدرة
المنتهى كما هو في سورة النجم ، وكما هو في حديث الإسراء
والمعراج مما هو معروف مستفيض ، وفي صحيح البخاري :
« ثم صَعِدَ بي إلى السماء السابعة .. ثم رفعت إلى سدرة
المنتهى .. ثم رفع لي البيت المعمور . » والتعبير بثُم يقتضي

الترتيب ، أي شيئا بعد شيء .. وعندما وصل صلى الله عليه وسلم إلى نقطة معينة من معراجه .. لم يتقدم جبريل الأمين ، مرافقه في هذه الرحلة المعجزة ، بل وقف مروعا وهو يقول : كما جاء في بعض الآثار : لو دنوت أنملة لاحترقت . إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ ومامنا إلا له مقام معلوم ﴾ ١٦٤ الصافات ، يراجع (الشفاء) للقاضي عياض ١/٤٣٣ . والمروّع هنا : بمعنى المفزّع الخائف .

٢٨ - ولما كان الصعود إلى السماوات العلا في البيت السابق ، إشارة إلى الارتفاع الحسي الذي اختصه الله تعالى به دون الأنبياء جميعاً ، فالمقابلة هنا تقتضي الإشارة إلى ارتفاعه المعنوي ، بما وهبه الله سبحانه له من قبل ، من الأخلاق والصفات العظيمة التي تفرد بها ، وتخيل الناظم أن أخلاقه وشمائله صلى الله عليه وسلم كانت سبعاً ، وهو العدد الذي يعبر به عن الكمال ، واقتضت المقابلة أيضا أن

يكون صلى الله عليه وسلم قد اجتازها حتى المحل السابع من التكريم ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ ٦٨ القلم و ﴿ لقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم ﴾ ١٥ الحجر ، ولا يخفى أن الكمال هنا هو الكمال البشري .. وهو أقصى ما يستطيع أن يصله إنسان ، ويكفيه صلى الله عليه وسلم أن يقترن اسمه في الشهادتين باسم الله العلي العظيم .

٢٩ - جاء في أحاديث الإسراء والمعراج إشارة إلى البيت المعمور ، على اختلاف في مكانه من السموات ، كما هو الاختلاف في مكان سدرة المنتهى ، وإن كان قد ذكر أن في كل سماء بيتاً معموراً ، مسامتا للكعبة المشرفة . وقد سبق أن أشرت إلى مسألة الترتيب في ذكر سدرة المنتهى .. فضلا عما يشير إليه اسمها من الانتهاء بالنسبة للملائكة ، وفي هذا البيت ذكر لبناء الملائكة لكعبتهم أو البيت

المعمور ، وقد سميته في البيت كعبة للربط بينه وبين الكعبة المشرفة ، أو البيت المعمور في الأرض ، وسيرى القارىء أن هذه الفقرة من البيت التاسع والعشرين إلى التاسع والثلاثين ، كلها تدور حول ربط البقاع المقدسة في الحجاز ، بوشائج سماوية ، تؤكد دين التوحيد ، وأنه الدين المختار للبقاء على الأرض .. مما سيأتي مفصلاً في الأبيات التالية ، ويشير البيت إلى عمار البيت المعمور عماراً متصلا بالملائكة الطائفين الركع ، الذاكرين الله تعالى ليل نهار .

الذرى : جمع ذروة ، والذرى القمم ، والمراد هنا السموات . وظلوا : بمعنى الاستمرارية أي داوموا إلى ما شاء الله تعالى . في (لسان العرب) : (وذِروة كل شيء وذُروتُه أعلاه ، والجمع الذُّرى بالضم ..) .

٣٠ - وفي سياق الحديث عن روابط الأرض بالسماء ،والبيت الحرام بمكة المكرمة بالبيت المعمور في السموات ،

وروابط إبراهيم الخليل أبي الأنبياء عليه السلام بحفيده المصطفى الحبيب ، خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم ، وارتباط الدين الإسلامي الحنيف ، بحنيفية إبراهيم ، لبيان كل ذلك تحدث هذا البيت عن قيام إبراهيم عليه السلام برفع القواعد من البيت العتيق إحياءً لمعمورة الأرض ؛ وهي الكعبة المشرفة ، وقد جاءت في ظل معمورة السماء ، تعبيراً عن تلك الصلة السماوية ، ورمزاً رائعاً للتوحيد وبقاء تلك الروابط وثيقة حية ، إلى يوم الدين .

٣١ - وشَرَح هذا البيت المرادَ بالرمز ، وهو توحيد الله عز وجل ، باتجاه أمة التوحيد إلى قبلة واحدة تجمعهم يتجهون إليها يومياً أينما كانوا من بقاع الأرض ، ويقصدونها في حجهم ، جاء الخليل عليه السلام من بيت المقدس إلى صحراء الحجاز ليرفع الكعبة ، إعداداً وتمهيداً لظهور الدين الإسلامي على يد حفيده صلى الله عليه وسلم ، وذلك قوله تعالى في

سورة البقرة ، الآية ١٢٧ و ١٢٨ و ١٢٩: ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبّل منا إنك أنت السميع العليم۞ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمةً مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ۞ ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾ . وقد تحققت دعوة إبراهيم ، فجاءت من ذرية إسماعيل الأمة المسلمة ، وبعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم بالرسالة الخاتمة ، واتخذ البيت الحرام قبلة مرتضاة . ففي صحيح البخاري ،باب :الصلاة من الإيمان ، (أنه صلى الله عليه وسلم صلّى قِبَلَ بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً ، وكان يعجبه أن تكون قبلته قِبَلَ البيت) .

٣٢ - وهذا البيت تأكيد لتلك الوشيجة (الرابطة) التي

أدنت مرابع الأرض (أقاليمها) من السماء بالتوجه إلى الله
بالعبادة ، حيث قامت الكعبة ، والبيت المعمور ، ليظلا
معمورين بالذكر والصلاة والدعاء ، وليظل رباط التوحيد
قائماً بين الأرض والسماء .

٣٣ - أما وقد اتضحت الصورة في ربط كعبة الأرض ،
بكعبة السماء ، وتواصل العبادة المستمرة في الكعبتين ..
فقد التفت هذا البيت إلى وشيجة أخرى تتعلق بالرسول
الكريم صلى الله عليه وسلم ، وهي ارتباطه أيضاً بقداسة
ثالثة هي بيت المقدس ، ليجتمع له شرف هذه الروابط الثلاثة
، فكان أن حج (قصد) المسجد الأقصى في حادثة الإسراء
، بل منّ الله سبحانه وتعالى عليه بأن جعله الإمام الجامع
لأنبيائه حيث صلى بهم كما هو في أحاديث الإسراء والمعراج
..وكما جعله الله عز وجل إماماً جامعاً للأنبياء ، وهو صلى
الله عليه وسلم خاتمهم ، فقد جمع بين قداسة البيت الحرام ،

وقداسة المسجد الأقصى، وقداسة البيت المعمور الذي يأتي ترتيبه في الصعود قبل سدرة المنتهى التي ينتهي إليها كل علمُ نبي مرسل ، وكل ملك مقرب ، ولم يجاوزها أحد إلا نبيّنا عليه الصلاة والسلام . (السيرة النبوية في ضوء الكتاب والسنة) ١/٤٠٧ وما بعدها .

حج = قصد . تؤمه = تقصده .

٣٤ - بعد الإشارة إلى البيوت المقدسة الثلاثة .. وهي الكعبة المشرفة ، التي نشأ الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في جوارها ، وبيت المقدس الذي قصده في إسرائه ، والبيت المعمور الذي شاهده في معراجه إلى السموات ، التي جمع الله تعالى لرسولنا بركاتها ، جاء هذا البيت للحديث عن نعمة إضافية ، فقد أنعم الله عليه بأن حرّم هو عليه الصلاة والسلام حَرَمَه ، مدينته المنورة فجاء هذا الحرم الجديد قدساً رابعاً ميزه الله تعالى به ، وذلك في حديثه الشريف في

صحيح البخاري، باب: فضائل المدينة : (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : مسجد الحرام ، ومسجدي ، ومسجد الأقصى) وفيه قوله صلى الله عليه وسلم : (المدينة حرمٌ من كذا إلى كذا لا يقطع شجرها ، ولا يحدث فيها حدث ، من أحدث فيها حدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) وفيه قوله صلى الله عليه وسلم : (حُرم ما بين لا بتي المدينة على لساني) . وفي صحيح مسلم قوله صلى الله عليه وسلم : (إني حرمت مابين لابتي المدينة كما حرم إبراهيم مكة) واللابة : الحرة . والمدينة ما بين حرتين عظيمتين . لسان العرب (مادة لوب) .

٣٥ - وفي هذا البيت مزيد إيضاح عن الحرم الرابع ، الذي أضافه النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو المسجد النبوي الشريف الذي باركه وما حوله ، وقد عقد البخاري في صحيحه بابين في هذا الموضوع باباً عن حرم

المدينة ، وآخر عن فضلها . وقد أوردت شيئاً مما ورد في الأول ، أما عن فضلها ، فقد أورد حديث : (أمرت بقرية تأكل القُرى ، يقولون : يثرب ، وهي المدينة ، تنفي الناس كما ينفي الكيرُ خَبَثَ الحديد)، وحديث : (أقبلنا مع النبي صلى الله عليه وسلم من تبوك حتى أشرفنا على المدينة ، فقال : هذه طابة) .

وفي الشطرالثاني من هذا البيت إشارة إلى حديثه صلى الله عليه وسلم في باب عقده البخاري أيضاً في صحيحه عنوانه (الإيمان يأرز إلى المدينة) أورد فيه عن أبي هريرة قوله صلى الله عليه وسلم (إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها) .

ويأرز بكسر الراء ، في رواية الحديث ، بمعنى : يتجمع ويثبت ويلوذ ، فالحية تأرز إلى جحرها : أي تلوذ به وتلجأ إليه ، وتحتمي به .

٣٦ - وحينما جعل الرسول صلى الله عليه وسلم مدينته حرماً كحرم مكة المكرمة ، صار في موطنه حرمان شريفان ، حرم حرّمه جده إبراهيم الخليل عليه السلام ، كان به مولده ، وحرم حرّمه هو صلى الله عليه وسلم وكان به مثواه . وليس هناك حرمان في وطن واحد إلا هذان الحرمان ، اللذان قاما في الحجاز . أما الحرم الثالث وهو بيت المقدس فهو في أرض الشام كما هو معلوم .

٣٧ - وليس بعد هذه المقدسات الثلاثة ، حرم يصح أن يقوم في المستقبل ، لأن رسولنا صلى الله عليه وسلم هو ختام الرسالة السماوية ، وكان هذا الختام كما يشير البيت ، مرسوماً منذ البداية ، ليكون شرفه للرسول العربي عليه أفضل الصلاة والسلام ، فالرسالات السابقة راعت فيها القدرة الإلهية سنة تدرج البشرية ، لتأتي مكملة بعضها البعض ، وليستقر كمال الشريعة على يدي الرسول الخاتم

صلى الله عليه وسلم ، ولذلك فإن الروح القدس (جبريل) ودع بعد انقطاع الرسالة المحمدية عهده بالرسالات .

٣٨ - الصلة بين السماء والأرض هو الوحي ، الذي كان ينزل على لسان الروح الأمين جبريل عليه السلام ، إلى الأنبياء والمرسلين ، وهو ذو قوة عند ذي العرش مكين ، كما جاء في سورة التكوير آية (٢٠) .

ولما كان سيدنا محمد هو خاتم المرسلين ، فقد انتهت برسالته ورسالة السماء على لسان الروح الأمين ، فليس بعد محمد صلى الله عليه وسلم رسالة ولا رسول . ولا شك أن سعي جبريل بين الأرض والسماء لهداية البشرية ، وأن يكون هو المكلف وحده بها ، منذ عرفت البشرية رسالات السماء حتى انتقل محمد صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى لا شك أن هذه المهمة الجليلة مصدر سعادة لهذا المَلَك الأثير الذي خصه الله تعالى بهذا الشرف العظيم .

في هذ البيت إشارة إلى جبريل عليه السلام ، الذي أدى رسالة السماء ، وحمل الكتاب إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بقوة وأمانة ، حيث كان يؤديه متفرقاً حسب الحاجة .. متتابعاً يتبع بعضه بعضاً حتى اكتمل .

وقد نص القرآن الكريم على القوة في قوله تعالى في سورة التكوير الآية : ٢٠: ﴿ إنه لقول رسول كريم ، ذي قوة عند ذي العرش مكين ﴾ ، وفي قوله عز وجل في الآيتين ٤ ،٥ من سورة النجم : ﴿ إن هوَ إلا وحيٌ يوحى ، علّمه شديد القوى ﴾.

كما نص على الأمانة في قوله تعالى في الآية ١٩٣ من سورة الشعراء : ﴿ نزل به الروح الأمين ﴾.

وبتتابع نزول القرآن الكريم منجماً حسب مناسباته ، تجمّع ما تفرق منه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

كما جمع الله تبارك وتعالى له في رسالته الخاتمة المتممة كل ما تفرق من الهدي السماوي على أيدي الرسل قبله ، وفي الكتب الصحيحة المنزلة ، ففرق الله بين الحق والباطل ، فكان الفرقان فرقاناً بكل المعاني الخيرة . قال جل ثناؤه في الآية ١١١ من سورة يوسف : ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ماكان حديثا يُفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يوقنون ﴾.

٤٠ - لما كان موضوع هذه القصيدة هو محاولة امتداحه صلى الله عليه وسلم وتحيته ، فإن هذه الأبيات الثلاثة الختامية ، تدور حول استدرار رد التحية ، وهذا البيت تمهيد لذلك ، بالحديث عن رابطة النسب ، فإني من أسرة حسينية من ناحية الأب والأم ، وذلك فضل من الله عظيم ، أسأله تعالى أن يقرنه بالعمل الصالح ، والختام

الجميل ، وهذا هو الذخر الحقيقي ·

يقول البيت إن لك يارسول الله في دمائي ذرة مهما تكن يسيرة ، تنتمي إلى شجرتك الوارفة ، فتدنيني منها ، آملاً إن لم أجد لها في طبعي وتصرفاتي صدى ، فلا أقل من أن تحثني على طلب التطبع ، والاقتداء بسنتك الشريفة ، والتزام شريعتك الغراء ، ودراسة سيرتك العطرة ·

٤١ - وفي هذا البيت تأكيد للصلة ، وتوجّه إليه صلى الله عليه وسلم لرد التحية .. فإن من أدب زيارته ، النداء : ﴿ السلام عليك يارسول الله ﴾ كما هو معروف مشهور .. فمن هذا قولي : أبتي ؛ أي ياأبي .. والجد أب ، ففي القرآن الكريم في الآية ٧٨ من سورة الحج ﴿ ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين

ـن قبل ﴾ ، وفـي سورة يـوسف الآيـة ٦: ﴿ كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحق ﴾ وقد جاءت إشارة سابقة مثيلة في البيت ٣٠ :(وبنى أبوك كمثلها معمورة) .

وإذا ابتلّت شفتي بهذا النداء الرطب (أبتي) فإنها ترتوي ، وتشعرني بالصلة والوشيجة ، وإنني في محاولتي بتقديم هذه المدحة المتواضعة ، لن أكون مضيعاً ، وبدون جائزة ، وإن جائزتي هي رد التحية ، كما في البيت التالي وهو الختام .

٤٢ - وفي هذا البيت الختامي ، طلب رد التحية ، بمثلها على الأقل ، كما في القرآن الكريم ـي سورة النساء الآية ٨٦ ، قوله تعالى : ﴿ وإذا حُييتم بتحيةٍ فحيوا بأحسن منها أو ردوها ﴾ ، فإن

وهبـتَ ، وتـفضلـتَ بـالـزيـادة التـي هـي أحســن ، فـأنت يـارسول اللـه بمـا وهبك اللـه عز وجـل مـن خـلـق عـظيم ، هـو الخُلُق القـدوة ، أهـلٌ أن تـزيـد بمـا تحب مـن زيـادة ، وأن تشفـع رد التحـية ، بخير منها ، والشفع فـي اللغـة ، خـلاف الـوتـر : شَفَـعَ : يَشْفَع الشيء . أي يصـيّره شفـعا أي زوجـا . □□

الفهرس

***



* صدر للمؤلف *

١-توثيق الارتباط بالتراث العربي .
٢-جبل طارق والعرب .
٣-خمسة أيام في ماليزيا .
٤-كعب بن مالك.
٥-أم عمارة .
٦-من عبد الحميد الكاتب .
٧-الحج في الأدب العربي .
٨-ضرار بن الأزور .
٩-خولة بنت الأزور .
١٠-أرطأة بن سهية .
١١-ظلال ولا أغصان ـ ديوان شعر ـ

١٢-رحلتي مع المكتبات .
١٣-رحلتي مع التأليف .
١٤-خارجة بن فليح المللي .
١٥-عبد الله بن أبي صبح المزني .
١٦- يوميات مئذنة مكية .
١٧-الرسول كأنك تراه.

***